﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿١٥﴾﴾ [الرّعد: 15]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

رَبْطُ ذِكْرِ ضلالِ الكافرين بكوْنِ الوجودِ برُمّتِه يَسجدُ لربِّ العالَمين

بعد أن بيّنَ ﷻ في الآية السّابقةِ بُطلانَ الشّركِ، وعدمَ أهليّةِ الشّركاءِ لأنْ يُعبَدوا ويُدْعَوا من دون اللّه، ثمّ ضربَ الأمثالَ على انعدامِ فاعليتِهم؛ لكونِهم لا يستجيبونَ لهم دُعاءً، ولا يَسمعونَ لهم نداءً، فهُم لا يملِكونَه؛ بل لا يملِكونَ لأنفسِهم نفعًا ولا ضرًّا، فكيف يملِكونَه لغيرِهم؟ تمامًا كما لا يملكُ الماءُ أن يبلُغَ أفواهَ العَطاشى؛ لأنّه جمادٌ لا يتحرّكُ بنفسِه، ولكن بمُحرِّكٍ، بعد ذلك كلِّه، بيَّنَ سبحانَه أنّه غنيٌّ عنهم وعن عبادتِهم، فله سُبحانه يَسجدُ وينقادُ الوجودُ كلُّه عُلْوِيُّه وسُفليه حتّى الظّلالُ، فقال: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿طَوْعًا﴾: أصلُ الطَّوعِ يدُلُّ على الإصحابِ والانقيادِ. يُقالُ: طاعَهُ يَطوعُهُ، إذا انقادَ معَهُ ومضَى لأمرِه. وأطاعَهُ بمعنى طاعَ لَهُ. ويُقالُ لِمَن وافقَ غيرَهُ: قد طاوَعَهُ[1]. وطاعَةُ اللّه: الانقيادُ والامتثالُ بفعلِ أوامرِه واجتنابِ نواهيه[2]. والطَّوعُ: نقيضُ الكَرْه، تقولُ: لَتَفعَلَنَّهُ طَوْعًا أو كَرهًا، طائعًا أو كارِهًا[3]. والمقصودُ بالطَّوعِ في الآية: الانسياقُ منَ النَّفس تقرُّبًا وزُلفى لِمحضِ التَّعظيمِ ومَحبَّةِ اللّه[4]، وهو خاصٌّ بمَن يأتي بالسُّجود والخضوعِ اختيارًا كالمُؤمنين، حالةَ كانَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طوع).
(2) ابن الأمير الصنعاني، التنوير شرح الجامع الصغير: 7/119.
(3) الخليل، العين: (طوع).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/110.

المقصودُ بالسّجودِ مَعناهُ الشَّرعيَّ، وإن كانَ المُرادُ به معناهُ اللّغويَّ، أي: الانقياد، فدائرةُ الطّوْعِ تتّسعُ لتشملَ كلَّ الجمادات غيرِ العاقِلة.

2) ﴿وَكَرْهًا﴾: أصلُ كَرِهَ يدُلُّ على خلافِ الرِّضا والمحبَّةِ. يُقالُ: كَرِهتُ الشَّيءَ أكرَهُهُ كَرهًا. والكُرهُ: الاسمُ. والكَرهُ: أنْ تُكَلَّفَ الشَّيءَ فَتَعمَلَهُ كارِهًا[1]، والكَراهةُ مِنَ الكُرهِ أوِ الكَرهِ؛ وهو المَشَقَّةُ والشِّدَّةُ، يُقالُ: قُمتُ على كُرهٍ؛ أي: على مَشقَّةٍ[2]، ومنه سُمّيتِ الحَربُ كريهَةً[3]، والمَكارِهُ: الشَّدائِدُ، والمَكروهُ: ما يَكرَهُهُ الإنسانُ ويَشُقُّ عليه[4]، والمُرادُ بالكَرهِ في الآية: الاضطرارُ عندَ الشِّدَّةِ والحاجةِ[5]، وتُطلَقُ على مَن يَستكبرُ عن عِبادة ربِّه، وفطرته تكذّبه في ذلك.

3) ﴿وَظِلَٰلُهُم﴾: أصلُ الظّلِّ يدُلُّ على سَترِ شيءٍ لشيءٍ. فالظِّلُّ: ظِلُّ الإنسانِ وغيرِهِ، تَقولُ: أظَلَّتني الشَّجَرَةُ. وظِلٌّ ظَليلٌ: دائِمُ الظِّلِّ[6]، ولا تقولُ العرَبُ: ظَلَّ يَظَلُّ إلّا لكلِّ عَمَلٍ بالنَّهار[7]، ويُقالُ لكلِّ مَوضِعٍ لم تصلْ إليه الشّمسُ ظِلٌّ، ويُعبَّرُ بالظِّلِّ عنِ العِزَّة والمَنَعَةِ، وعَنِ الرَّفاهَة. والظُّلَلُ: جمعُ ظُلَّةٍ، كغُرفَةٍ وغُرَفٍ: سحابةٌ تُظِلُّ، وأكثرُ ما يُقالُ فيما يُستوخَمُ ويُكرَهُ، قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾ [الأعراف: 171][8]. والمقصودُ بـ ﴿وَظِلَٰلُهُم﴾ في الآية: صورةُ الجسمِ المُنعَكِسِ إليه نورٌ[9].

4) ﴿بِٱلْغُدُوِّ﴾: أصلُ (غدو) يدُلُّ على زمانٍ، مِن ذلكَ الغُدوُّ، يُقالُ غَدا يَغدو[10]، والغَداةُ والغُدوَةُ والغُدوُّ بمعنًى، وهو مِن أوّلِ النَّهار إلى الزَّوال[11]، والغُدوُّ جمعُ غَداة، كقُنًى جمعُ قَناة[12] والغَدوَة: المَرَّة مِنَ الغُدوِّ، وهو سَيرُ أوّلِ النّهارِ، نقيضُ الرَّواحِ[13]، والغادِيةُ: سَحابَةٌ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كره).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (كره).
(3) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (كره).
(4) ابن الأثير، النّهاية: (كره)، وابن منظور، لسان العرب: (كره).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/110.
(6) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (ظل).
(7) الخليل، العين: (ظل).
(8) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (ظلل).
(9) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/111.
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غدو).
(11) السّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (غدو).
(12) الكرمانيّ، غرائب التّفسير، ص: 565.
(13) ابن منظور، لسان العرب: (غدا).

تَنشأُ صَباحًا. والغَداءُ: الطَّعامُ بعَينِه، سُمّي بذلكَ لأنَّهُ يُؤكَلُ في ذلك الزَّمانِ[1]. والمرادُ بالغُدوِّ في الآية: الزَّمانُ الَّذي يغدو فيه النّاسُ؛ أي: يخرجون إلى حوائجِهم.

5) ﴿وَٱلۡأٓصَالِ﴾: الأصيلُ ما كانَ مِنَ النَّهارِ بعدَ العَشي، وهو الوقتُ بعدَ العَصرِ إلى المَغرِبِ، وجَمعُهُ: أُصُلٌ وآصالٌ[2]، وقد آصَلْنا؛ أي: دَخَلْنا في الأصيلِ، ولَقيتُهُ أُصَيلالًا وأُصَيلانًا: إذا لقيتَه بالعَشي[3]. والمقصودُ بـ (الآصال) في الآية: وقتُ اصفِرارِ الشَّمسِ في آخرِ المساءِ[4].

❁ المَعْنى الإجْماليّ:

يُبيِّنُ ﷻ في هذه الآية أنَّ خضوعَ الوجودِ كلِّه وانقيادَهُ له سبحانَه، فقالَ تعالَت كلماتُه: ولله وحدَه يخضعُ بالسُّجود جميعُ مَن في السَّماوات ومَن في الأرض، طائعينَ ومُكرَهينَ؛ سُجودَ ذلٍّ وقهرٍ وخضوعٍ، فكلُّ أحدٍ خاضعٌ لقدَرِ الله، مَقهورٌ تحتَ سُلطانِه، لا يقدرُ أن يمتنعَ عليه، وله ينقادُ ظِلُّ كلِّ ما لهُ ظِلٌّ مِنَ المخلوقاتِ أوَّلَ النَّهار وآخرَهُ[5].

يَسجُدُ لله تعالى كُلُّ مَن في السّماواتِ والأرضِ، خاضِعًا مُنقادًا، رغبةً ورهبةً

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيّ:

بَلاغةُ الوصْلِ في الآيةِ الكريمةِ:

الصّلةُ بين جملةِ ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ﴾ وجملةِ ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ﴾ واضحةٌ، ولذا وصلَ بينَهما بالعطف بالواو؛ إذِ المعنى: له ﴿دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ﴾، وله ﴿يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ وذلكَ شِعارُ الإلهيةِ[6].

دَعوةُ الحقِّ صورةٌ لألُوهيّته الموجِبةِ السُّجودَ له جلَّ في عُلاه

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غدو)، والرّاغب، المفردات: (غدا).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أصل).
(3) ابن سيده، المُحكم، وابن منظور، لسان العرب: (أصل).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/111.
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/306 - 305، والشّنقيطيّ، أضواء البيان: 2/237 239، وجماعة من علماء التفسير، المختصر في تفسير القرآن، ص: 251.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/110.

وجْهُ العُدولِ عن ضَميرِ الجلالةِ إلى اسمِه تعالى ﴿وَلِلَّهِ﴾:

لا دعوةٌ بحقٍّ، ولا عبادةٌ بإخلاصٍ، إلّا لله وحدَه

أُظهرَ الاسمُ الجليلُ (اللّه)، والمَقامُ يقتضي إضْمارَه، بأنْ يُقالَ: (وله يسجدُ) فهو معطوفٌ على ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾؛ لاقتضاء المقام هذا، تحقيقًا للغرَضِ الّذي وردَ فيه السّياقُ، وهو إثباتُ أنّ الدّعوةَ الحقَّ، والعبادةَ الخالِصةَ الكامِلةَ، هي للّه وحدَهُ.

سِرُّ تقْديمِ شبْهِ الجُملةِ ﴿وَلِلَّهِ﴾ في السّياقِ:

اختصاصُ السُّجود باللّه وحدَه، من مُقتضياتِ الألوهيّةِ الحَقّةِ

تقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿وَلِلَّهِ﴾ فيه دلالةٌ على حصْرِ السّجودِ الحقِّ للّه وحدَه دونَ سواه، أو لأنّ السّجودَ بمعناه المُتبادَرِ؛ وهو الهَوي على الأرض بقَصدِ الخُضوعِ قَدِ اختَصَّ اللّه به على الإطلاقِ؛ لأنَّ المَوجوداتِ العُليا والمُؤمنينَ باللّه يسجُدونَ له، والمُشركينَ لا يَسجُدونَ للأصنامِ ولا للّه تعالى[1].

نُكتةُ التّعبيرِ عنِ السُّجودِ بالمضارعِ ﴿يَسْجُدُ﴾:

لا ينقطعُ السُّجودُ لله في كونِهِ الواسعِ؛ تَعظيمًا لجلالِه الخافِضِ الرّافِعِ

التّعبيرُ بلفْظِ السُّجودِ مُضارِعًا دالٌّ على استمرارِه وتجدُّدِه؛ إذ إنّ السّجودَ للّه ﷻ لا ينقطِعُ لحظةً، بل يَستمرُّ كأثَرٍ لتَعدُّدِ السّاجِدين وتنوُّعِهم، سواءٌ في الأرض أم في الملأ الأعلى.

جُملةُ ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ﴾ بين الحقيقةِ والمَجازِ:

يُرادُ بالسُّجودِ ما كان على الحقيقةِ، أوِ الذُّلُّ والخضوعُ على المَجاز

لفظُ (السّجود) ينصرفُ - حقيقةً شرعيّةً - إلى السّجودِ المعروفِ في الصّلاة الّذي هو أحدُ أركانها، ويعني الهوي على الأرض خُضوعًا للّه وتذلُّلًا، كما أنّه في حقيقتِه اللّغويَّةِ إنّما يعني الذّلَّ والتّطامُنَ[2]، وهو مُفيدٌ للانقيادِ والطّاعةِ والخضوعِ. وبناءً على هذين التّأصيلَين صارَ اللّفظُ مُحتمِلًا للتّوجيهَين:

الأوّلُ: حملُهُ على حقيقتِهِ الشّرعيّةِ، وهو هنا الأظهرُ، وحصولُهُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/110.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سجد).

يكونُ منَ الملائكةِ والمؤمنين منَ الإنسِ والجنِّ، والآيةُ عليه خبرٌ مُرادٌ به الطّلبُ[1].

الثّاني: حملُهُ على معناه اللُّغويِّ الّذي هو الذُّلُّ والتّطامُنُ، مُرادًا به لازمُه ونتيجتُه؛ أي: الانقياد والخضوع، وهذا الثّاني أوسعُ معنًى وأشملُ، من حيث إنّ الانقيادَ قَدَرٌ مُشترَكٌ بين الجميعِ، "فيصحُّ إطلاقُه على العقلاءِ السّاجدين وغيرِهم، وعلى ظلالِهم أيضًا"[2] والسّجودُ على هذا مَجازٌ مُرسَلٌ، علاقتُهُ اللّزوميّةُ أوِ السّببيّةُ، حيث أطلقَ السّجودَ، وأرادَ لازمَه[3].

بَلاغةُ الاسْتِعارة في جُملةِ ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ﴾:

السُّجودُ خُضوعٌ للخالِقِ، وتذلُّلٌ لمَقامِهِ السّامِقِ

مضى في الآيةِ السّابقةِ أنّ لفظَ ﴿يَسْجُدُ﴾ بمعناه اللُّغويِّ هو مَجازٌ مُرسَلٌ، وهنا نبيّنُ أنّه بمعناه الشّرعيِّ؛ أي: السّجودُ باعتبارِهِ ركنًا في الصّلاة هو - من منظورٍ بلاغيٍّ - مجازٌ لُغويٌّ (اسْتعارةٌ تبعيّةٌ)، لعلاقةِ المُشابهةِ في الذّلِّ والخضوعِ بين السّجودِ بمعْنَيَيْه اللُّغويِّ والشّرعيِّ[4]، لكنَّ علماءَ الشّريعةِ مُصطلِحون على تسميةِ مثلِ ذلك بالحقيقةِ الشّرعيّةِ.

إيثارُ الموصولِ ﴿مَن﴾ الدّالِّ على العاقِلِ:

العُقلاءُ أصْلُ الانقيادِ، وانقيادُهم دليلٌ على انقيادِ غيرِهم

أوثِرَ التّعبيرُ بـ ﴿مَن﴾ الموصولةِ الدّالّةِ على العاقِلِ، مع كون الظّلالِ المذكورةِ في الآية مشمولةً فيها، وهي ليسَت منَ العقلاء، من باب تغليبِ العاقلِ على غيرِه[5]. وهو الأرجحُ، أو يكونُ تخصيصُ العقلاء ملحوظًا فيه أنّهم العُمدَةُ، وأنّ انقيادَهُم دليلُ انقيادِ غيرِهم[6]. وتدُلُّ (من) الموصولةُ على العُموم، وهو عمومٌ عُرفيٌّ يُرادُ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/370.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/489.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3918.
(4) الرّضيّ، تلخيص البيان، ص: 122.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3918.
(6) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/119.

به الكثرةُ الكاثِرةُ. وأمّا سرُّ عدمِ إعادة ﴿مَن﴾ مع الأرض، فلم يقُلْ: (ومَن في الأرض) فهو الاستخفافُ بالكفّارِ والأصنامِ[1].

سِرُّ تَقْديمِ السّاجِدين في السّماواتِ على السّاجِدين في الأرضِ:

أهلُ السّماواتِ أسبقُ وجودًا، والسُّجودُ صفةٌ عامّةٌ فيهم

الّذي يظهرُ في بيان سببِ تقديمِ السّاجدين في السّماوات على السّاجِدين في الأرض، أنّ مرجعَه لأسبابٍ ثلاثةٍ:

الأوّلُ: أنّ السّجودَ في أهل السّماواتِ صفةٌ عامّةٌ فيهم لا تتخلَّفُ، فكلُّ أهلِ السّماواتِ ساجِدون للّه، خاضِعون له، طائِعون، ولذا قدَّمَهُم أيضًا في قوله سبحانه: ﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾ [آل عمران: 83]، بخلاف أهلِ الأرض؛ ففيهمُ الطّائعُ السّاجدُ، وفيهم الضّالُّ الّذي لا يسجدُ للّه. ويُعبِّرُ عن هذا المعنى قولُه تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ﴾ [الحجّ: 18]

الثّاني: الأسبقيّةُ الزّمانيّةُ؛ فإنّ أهلَ السّماوات (الملائكة) أسبقُ وجودًا من أهل الأرض. وحِوارُ اللّه تعالى لملائكتِه في قصّة خلقِ آدمَ دالٌّ على هذه الأسبقيّةِ الوجوديّةِ[2].

الثّالث: دلالةُ السّياقِ هنا ترجِّحُ البدءَ بأهل السّماواتِ؛ لأنّه قد سبقَ هذه الآيةَ ذِكرُ العُلوياتِ منَ البَرق والسّحاب والصَّواعِقِ، ثمَّ ذِكرُ الملائِكةِ وتسبيحِهم، ثم ذَكَر بعد ذلك الأصنامَ والكفّارَ، فاقتضى السّياقُ والتّرتيبُ أن يبدأ هنا بذكرِ مَن في السّماوات، ثمّ ذِكرِ الأرضِ تبعًا[3].

---

(1) الكرمانيّ، أسرار التّكرار، ص: 152.

(2) من الآيات الدّالّة على ذلك وهي كثيرة، قوله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝٧٢﴾ [ص: 71 - 72].

(3) الكرمانيّ، أسرار التّكرار، ص: 152.

توجيهُ إعرابِ ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾:

في توجيه النّصبِ في قولهِ تعالى: ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ احتمالاتٌ؛ فهو إمّا مفعولٌ مِن أجله، وإمّا حالٌ؛ أي: طائعين وكارهين، وإمّا منصوبٌ على المصدر المُؤكِّدِ بفعلٍ مُضمَرٍ[1].

تـنـوُّعُ الإعـراب سَعةٌ في المعنى، وإفـصـاحٌ في الدّلالةِ

دَلالةُ الطّوعِ والكَرْهِ على العُمومِ:

دلَّ هذا التّقسيمُ ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ على أنّ كلَّ المخلوقاتِ ساجدةٌ للّه؛ سواءٌ منها المخلوقاتُ غيرُ العاقلة، وهو فيها أظهرُ لقوله تعالى: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فُصّلت: 11]، أم المخلوقاتُ المُختارةُ العاقلةُ كالإنس والجنّ، أمّا في المؤمنِ منهما فظاهرٌ، وأمّا في الكافرِ منهما فإنّه أيضًا "في حكمِ السّاجدِ، وإنْ أباهُ لِما بهِ منَ الحاجةِ الدّاعيةِ إلى الخُضوعِ"[2]، وعلى هذا يكونُ هذا التّقسيمُ ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ دالًّا على العُموم. ومثلُهُ في الدّلالة على هذا أيضًا قولُه تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران: 83]. وفي هذه الدّلالةِ على العُموم دَلالةٌ أخرى على "كمالِ السّلطانِ للّه تعالى"[3].

المـخـلـوقـاتُ المُختارةُ العاقلةُ وغـيرُ العـاقـلةِ كلُّها تَسجدُ لله

دَلالةُ تَقْديمِ الطَّوعِ على الكَرْهِ:

دأبَ القرآنُ الكريمُ على تقديم الطَّوع على الكَره في آياته، فهي عادةٌ قُرآنيّةٌ؛ لأنّ الأصلَ في حصول الإسلام وفي الطّاعة عمومًا أن يكونَ طواعيةً لا كَرهًا، كما أنّ أكثرَ ورودِ هذين المُتقابلَين، أنّه يأتي ضمنَ تقابُلٍ آخرَ في الإخبارِ عن طاعة أهلِ السّماواتِ والأرض، كما في قولهِ تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [آل عمران: 83] وقولهِ: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ

إنّ الاعـتـقـادَ ومـا يَتْبعُه منَ الـطّـاعـات، لا يـكـونُ إلّا عن طواعيةٍ

(1) السّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 7/36.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/302، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/25.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3919.

مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعًا وَكَرۡهًا﴾ وقد مضى أنّ الطّاعةَ في أهل السّماواتِ أشملُ وأسبقُ. وقد مضَت هذه العادةُ أيضًا في مَوضِعَين آخرَين؛ هما قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهًا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ١١﴾ [فصّلت: 11]، وقولُه تعالى: ﴿قُلۡ أَنفِقُواْ طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمۡ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ٥٣﴾ [التّوبة: 53]، ومرَدُّ هذا التّقديمِ للطَّوْعِ إلى أنّ الاعتقادَ، وما يَتْبعُه منَ الطّاعات، لا يكونُ إلّا عن طواعيةٍ؛ إذ ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: 256]، كما نصّ القرآنُ.

معنَى العطْفِ بالواوِ في السّياقِ الكريمِ:

قولُه تعالى: ﴿وَظِلَٰلُهُم﴾ معطوفٌ على ﴿مَن﴾ في قوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن﴾، وسرُّ العطفِ هنا كونُ سجودِ ظلالِهم تابعًا لسُجودِهم؛ فإنّ هُم سجدوا سجدَت معهم ظلالُهم، فما الظّلُّ سوى انعكاسٍ لصورةِ الجسمِ من تأثيرِ وقوعِ أشعّةِ الشّمس عليه.

سُجودُ الظّلِّ تابعٌ لسُجودِ المرْءِ

سِرُّ التّعبيرِ بلفْظِ (الظّلال) في الآيةِ الكريمةِ:

عبَّرَ بـ (الظّلال)؛ لأنّ مَقامَ السّياقِ هو في الحديث عنِ الانقياد والخضوعِ، وهو أظهرُ في (الظّلال)؛ لأنّ الظّلالَ مُنقادَةٌ مُسخَّرةٌ لِما أرادَ سبحانَه، فظلالُهم تسجدُ لله بامتدادِها على الأرض، تَقصُرُ تارةً بارتفاعِ الشّمس وتطولُ أخرى بانحطاطِها، وهُم لا يَقدِرونَ على منْعِ ظلالِهم مِن ذلك حيثُ يكونُ لهُم ظلالٌ[1]. وفيه إشارةٌ إلى أنّ أولئك المُشركين خاضعون مُنقادون لله حتّى ظلالُهُم الّتي تلازمُهُم، فالوجودُ كلُّه - تابعًا ومَتبوعًا، مُلازمًا وغيرَ ملازمٍ - خاضعٌ لله تعالى[2].

الوُجودُ كلُّه خاضعٌ لله، مُنقادٌ له دونَ سواه

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/303.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3919، وابن جُزَيّ، التّسهيل: 1/403.

إضافةُ الظّلالِ إلى الضّميرِ (هم):

تَخصيصُ الظّلالِ في السّياقِ المُبينِ توجيهٌ لنظرِ الغافلين

يعودُ الضّميرُ في قوله تعالى: ﴿وَظِلَٰلُهُم﴾ إلى ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، مع تخصيصه بالصّالح له منَ الأجسامِ الكثيفةِ ذاتِ الظّلِّ تَخصيصًا بالعقلِ والعادةِ[1].

والسّرُّ في إضافة الظّلالِ إلى ضمير (هم) تَخْصيصُ ظلالِهم؛ لتكونَ أقربَ لتوجيهِ نظَرِ الغافلين إلى هذه الموازَنةِ، وهي أنّه إذا كان هذا الغافلُ لا يستطيعُ التَّحكُّمَ في ظلاله؛ لكونِها مُنقادةً لله، يتصرَّفُ فيها كيفما شاءَ؛ امتدادًا وتقلُّصًا بحسبِ وضْعِها بالغدوِّ والآصال، فهلّا انقادَ هو لخالقِه كانقيادِ الظّلالِ لمشيئة لله، فوحَّدَه وعبَدَه عن طواعيةٍ واقتناعٍ، ففيه دعوةٌ إلى النّظر، كما صرّحَ به في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا لِلَّهِ﴾ [النّحل: 48].

دَلالةُ حرْفِ (الباء) في قوله تعالى ﴿بِٱلۡغُدُوِّ﴾:

اسْتِعمالُ حرفِ المعنى، بأكثرَ من معنًى، مُفيدٌ في البيانِ

دلّتِ الباءُ في قوله تعالى: ﴿بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾ على الظّرفيّة؛ أي: أنّها بمعنى (في)[2]، وذلك جائزٌ من حيث إنّ الباءَ للإلصاق، والمُلاصِقُ للزّمان والمكانِ حاصلٌ فيهما[3].

نُكتةُ إفْرادِ الغُدوّ:

الغُدوّ على المصدريّة، مَصدر

المُرادُ بالغدوّ الأوقاتُ، وأُفرد في النّظم ولم يُجمَعْ على (غَدَوات) أو(غَديات) فيُقابلَ (الآصال)؛ لكون الغدوِّ في معنى الجمع، فاستغنى به؛ ولكونهِ مصدرًا في الأصل، والمُرادُ به الزّمانُ، مثل: جئتُك طلوعَ الشّمس؛ أي: وقتَ طلوعِها، وأُطلِقَ للوقت مَجازًا؛ لِمجاورتِه ثمّ صارَ حَقيقَةً عُرفيّةً، ومعناهُ الدّخولُ في وقت الصّباح[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/111.
(2) السّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 7/37.
(3) عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن: 2/13.
(4) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 8/586 و13/388.

فائِدةُ تَخْصيصِ وقْتَيِ الغُدوِّ والآصالِ:

الظِّلالُ من صُنْعِ اللهِ البديعِ، وهي تَعْظُمُ وتَكثُرُ في الغدوّ والآصال

وتخصيصُ الوَقتَين بالذّكر مع أنّ انقيادَها مُتحقِّقٌ في جميع أوقاتِ وجودِها لظهورِ ذلك فيهما، فالظّلالُ إنّما تَعظُمُ وتَكثُرُ فيهما[1].

فهذان الوقتان الغدوُّ والآصالُ، هما اللّذان يختلفُ فيهما الطّولُ والعرضُ؛ ولأنّ الغَدوةَ تشرقُ فيها الشّمسُ على الوجود فتمدُّه بكلِّ أسباب القوّةِ والنّماءِ للأحياء؛ ولأنّ الأصيلَ هو الوقتُ الّذي تُؤْذنُ فيه الشّمسُ بزوالٍ، واللّه على كلّ شيءٍ قديرٌ[2].

تَوْجيهُ التّشابُهِ اللّفْظيّ:

ناسَبَ ورودُ كلّ حرفٍ سياقَه، ودِقّةَ نَظْمِه

وردَت في القرآن الكريم آياتٌ مُتشابهةٌ مع قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، مع فروقٍ بينها في التّناوُبِ بين ﴿مَن﴾ و﴿مَا﴾ [النّحل: 49]، وفي ذكر ﴿فِي﴾ [النّحل: 49] مع الأرض أو عدمِ ذكْرِها، وكذلك في التّقديمِ والتّأخيرِ، على النّحو الآتي:

في سورة الرّعد: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وفي سورة النّحل: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [النّحل: 49]، وفي سورة الحجّ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ﴾ [الحجّ: 18].

فأمّا آيةُ الرّعد فقد تقدَّمَها ذِكرُ العُلويّاتِ منَ البَرق والسّحابِ والصّواعِقِ، ثمَّ ذِكرُ الملائِكَةِ وتسبيحِهم، وذكرَ بعدَ ذلك الأصنامَ والكفّارَ. وفي آية السّجدةِ كانَ التّرتيبُ على هذا النّسق فبدأ بذكرِ مَن في السّماواتِ، ثمّ ذكرَ الأرضَ تبعًا، ولم يذكرْ ﴿مَن﴾، بل قال: ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ استِخفافًا بالكفّارِ والأصنامِ.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/12، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/370.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3919.

وأمّا آيةُ النَّحلِ فقد تقدَّمَها ذكرُ ما خلقَ اللّه على العُموم، ولم يكنْ فيهِ ذكرُ الملائكةِ ولا الإنس - وهما الجنسان العاقِلان - بالصَّريح، فاقتضَتِ الآيةُ التّعبيرَ بـ ﴿مَا﴾ [النّحل: 49] دون ﴿مَن﴾ فقال: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [النّحل: 49].

وأمّا آيةُ الحَجِّ فقد تقدَّمَها ذكرُ المُؤمنينَ، وسائِرِ الأديان، فقدَّمَ ذكرَ ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الحجّ: 18] تعظيمًا لَهُم ولها، وذَكَرَ بعدَ ذلك ﴿وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الحجّ: 18]؛ لأنّهُم هُمُ الّذين تقدَّمَ ذكرُهُم. فقالَ في كلِّ آيَةٍ ما يليقُ بها[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

الطَّوْعُ والرَّغْبَةُ:

كلُّ طَوْعٍ رغبةٌ، وليسَت كلُّ رَغْبةٍ طَوعًا

الطَّوعُ الانقيادُ، وقد قوبِلَ بالكَره عدّةَ مرّاتٍ في القرآن الكريم، ومنها قولُه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾، والطّاعَةُ مِثلُه، لكنْ أكثرُ ما تُقالُ في الائتِمار لِما أُمِرَ، والارتِسامِ فيما رُسِمَ[2] إيماءً إلى أنّ الطّاعةَ هي الانقيادُ للّه لا عن كره، بل عن إخلاصٍ ومحبّةٍ ورضا، وهذا معنًى شرعيٌّ للطّاعة. أمّا اللّغةُ فمُطلَقُ الانقيادِ هو طاعةٌ سواءٌ وقعَت عن "رَغبَةٍ أو رَهبةٍ"[3]، والمعنى المحوريُّ للطَّوع "لُيونةُ الشّيءِ وتأتّيهِ لِما يُرادُ منه"[4].

أمّا الرّغبةُ فأصلُها السَّعةُ في الشّيء، يُقالُ: رَغُبَ الشّيءُ: اتّسَعَ، وحَوضٌ رَغيبٌ[5]؛ أي: واسعٌ. وتُطلَقُ الرّغبةُ على الإرادة في الشّيءِ والحرْصِ عليه، أو على الانصرافِ والإعراضِ عنه تبعًا لحرف الجرِّ الّذي عُدّي به.

(1) الكرمانيّ، البرهان، ص: 152.
(2) الرّاغب، المفردات: (طوع).
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 223.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (طوع - طيع).
(5) الرّاغب، المفردات: (رغب).

"فإذا قيل: رَغِبَ فيه وإليه يقتَضي الحِرصَ عليه، قال تعالى: ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ۝٥٩﴾ [التّوبة: 59]، وإذا قيل: رَغِبَ عنه اقتَضى صَرفَ الرّغبةِ عنه والزّهدَ فيه، نحوَ قولِه تعالى: ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾ [البقرة: 130]"[1].

وخلاصةُ هذا الطّرح أنّ بين الطَّوعِ والرّغبةِ تقارُبًا دَلاليًّا، فيجتمعان في الانقياد للشّيء حرصًا عليه، ثمّ تنفردُ الرّغبةُ بانصرافِها إلى معنى الإعراضِ حالَ التَّعدّي بـ (عن) الّتي هي للمُجاوزةِ، وعلى هذا فكلُّ طوعٍ رغبةٌ، وليسَت كلُّ رغبةٍ طوعًا.

الكَرْهُ والغَصْبُ والإجْبارُ:

الكَرهُ: ما يُحمَلُ عليه بإكراهٍ، والغصبُ: أخذُهُ ظلمًا، والإجبارُ: حَملُ الآخر على الأمر.

االكَرْهُ: المَشقّةُ الّتي تنالُ الإنسانَ من خارجٍ فيما يُحمَلُ عليه بإكراهٍ[2] والإكراهُ: حَملُ الإنسانِ على أمرٍ لا يُريدهُ طبعًا أو شرعًا[3]، والغصبُ: أخذُ الشّيءِ ظلمًا. تقولُ: غَصَبَه منه، وغَصَبَه عليه، بمعنى[4].

والإجبارُ: في الأصلِ حَملُ الآخرِ على الأمر، تُعورِفَ في الإكراه المُجَرّدِ، فقيلَ: (أجبرَهُ على كَذا)؛ أي: أكرهَهُ فهو (مُجبَر)[5].

وبعد هذا العرْضِ لتعريف كلٍّ واحدةٍ منَ المفردات الثّلاث، يبيّنُ لنا أنّ هُنالك مُشتركًا، وتقارُبًا دَلاليًّا بينَها، من حيث تضادُّها جميعًا للاختيار، لكنّها تصبُّ ثلاثتُها في معنى الكَره والإكراه، فمعناه سارَ في مُفردتَي الغصب والإجبار، ولذلك آثرَهُ القرآنُ في التّعبير، ولم يَستعمِلْ مُفردتَي الغصب والإجبار، فهو إذن لفظٌ قرآنيٌّ، وهو أيضًا أعمُّ من لفْظَي الغصبِ والإجبارِ، فهما مُتفرِّعان عنه، من جهة المعنى، ومَردودان إليه.

(1) الرّاغب، المفردات، السّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (رغب).
(2) الرّاغب، المفردات: (كره).
(3) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 163.
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (غصب).
(5) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 49.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والعشرون، سورة يوسف من الآية 56 إلى سورة الرّعد الآية 15
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والعشرون، سورة يوسف من الآية 56 إلى سورة الرّعد الآية 15
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 23 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-20-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 23 : المجلد الثالث والعشرون، سورة يوسف من الآية 56 إلى سورة الرّعد الآية 15.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-20-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8086351 بتاريخ 2024/02/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»